المبحث الرابع

أثر المفاهيم العقلانية فيما يسمى بالفكر الإسلامي الحديث

أقصد بالفكر الإسلامي الحديث: تلك البحوث والمؤلفات والكتابات ومجموع الدراسات والأفكار والتصورات، التي قام بها علماء ومفكرون ومثقفون مسلمون، وبأسلوب معاصر.

وقد تأثر ما يسمى بالفكر الإسلامي الحديث بالدراسات والمفاهيم والمصطلحات والأفكار العقلانية بعض التأثير، وخاصة في الشكليَّات والمصطلحات والأساليب، أي: أنه لم يتأثر بالأصول والأهداف إلا نادراً.

وسأذكر الآن ـ وبإيجاز ـ بعض الشواهد على تأثر الكتاب والمفكرين الإسلاميين بالمصطلحات والأساليب العقلانية، وهذه أمثلة:

(١) إنه من السنّة ومما جرى عليه عمل المسلمين عموماً ـ أنهم يبدؤن خطبهم، ومؤلفاتهم، ومجالسهم العلمية، وسائر أحوالهم، ببسم الله الرحمن الرحيم، وبالحمد لله والصلاة والسلام على رسوله (عليه الصلاة والسلام)[1] لذلك أطلقوا على خطبة زياد (البتراء) حينما لم يبدءها باسم الله ولا بحمده، مما يدل على ندرة هذا الحديث وشذوذه. لكن العقلانيين تركوا هذه السنّة وأهملوها ـ في الغالب ـ تقليداً للغربيين، الذين فصلوا الدين عن العلم! حتى في تلك

(١) راجع صحيح مسلم بشرح النووي، المجلد الأول ص٣٤، ٤٤، وزاد المعاد لابن القيم، الجزء الأول ص ٦٥.

المؤلفات ذات الصبغة الإسلامية[١]، التي كتبها العقلانيون المحدثون.

وقد تأثر بعض مفكري وكتاب ما يسمى بالفكر الإسلامي الحديث، وكذلك روّاد العقلانية الحديثة من باب أولى، فبعضهم لم يبدأ باسم الله أصلاً[٢]، وكثير منهم بدأ باسم الله لكنه لم يحمد الله، ولم يصلِّ على رسول الله[٣]، وهذا ولا

(١) **راجع الكتب التالية فكلها لم تبدأ باسم الله ولا بحمده ولا الصلاة والسلام على رسوله:**

١ ـ أكثر كتب العقاد ومنها العبقريات كلها (بما فيها عبقرية محمد) وكتاب (الله) وإبراهيم أبو الأنبياء، وكل كتب موسوعته الإسلامية لم تبدأ باسم الله تعالى ولا بحمده.

٢ ـ الألوهية وفكر العصر ـ د. حامد عوض الله.

٣ ـ الإسلام وتحديات العصر ـ د. حسن صعب (طبعة ثالثة).

٤ ـ بين الدين والفلسفة ـ محمد يوسف موسى.

٥ ـ حياة محمد ورسالته ـ مولانا محمد علي ـ ترجمة منير بعلبكي (طبعة ثالثة).

٦ ـ هذا هو الإسلام ـ فاروق الدملوجي (طبعة ثانية).

٧ ـ الله ـ مصطفى محمود (طبعة أولى).

٨ ـ نظرات استشراقية في الإسلام ـ د. محمد غلاب.

(٢) **الكتب الإسلامية التي بدأها مؤلفوها بدون أن تفتح باسم الله وحمده قليلة منها:**

١ ـ يا مسلمي العالم اتحدوا وواجهوا أعداءكم ـ د. سلامة المغير.

٢ ـ شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، لأنور الجندي.

٣ ـ في النقد الإسلامي المعاصر ـ د. عماد الدين خليل.

(٣) **الكتب التي بدأها مؤلفوها بدون الحمد لله والصلاة على رسوله كثيرة جداً، منها على سبيل المثال:**

١ ـ أكثر كتب محمد الغزالي/ ومنها فقه السيرة، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، الإسلام المفترى عليه، ظلام من الغرب، دفاع عن العقيدة والشريعة، كفاح دين، وهذا ديننا.

٢ ـ عامة كتب أنور الجندي/ ومنها: الأيدلوجيا والفلسفات المعاصرة في ضوء الإسلام، الإسلام في وجه التغريب.

٣ ـ عامة كتب محمد قطب/ ومنها: جاهلية القرن العشرين، والتطور والثبات، هل نحن مسلمون، قبسات من الرسول. =

شك انهزامية أمام الموجة العقلانية التي تستهين بشأن السنن والعادات الإسلامية الحسنة، وتتعمد مخالفة ما تعارف عليه السّلف، لا سيما وأن ذلك من سنن الإسلام التي كان الرسول ﷺ يواظب عليها ولا يتركها، ولا عذر ولا ضرر لهؤلاء الكتاب بتركها.

كما أنه ليس غريبًا أن تكون هناك قلة من الكتب الإسلامية لم تبدأ بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله، لكن الملفت للنظر والمؤسف أن تكون كثيرة، ومن المؤلفين الذين ساهموا في بناء الفكر الإسلامي الحديث، وأن تكون أيضًا عادة لبعضهم، بحيث يندر أن تجده مبتدئًا بحمد الله، وذلك مثل كل من: محمد الغزالي، سيد قطب، محمد قطب، أنور الجندي، وحيد الدين خان، عبدالله دراز، وغيرهم كثيرون!

وكل هؤلاء ساهموا مساهمة فعالة في خدمة الفكر والثقافة الإسلامية.

بل إن محمد الغزالي، وسيد قطب، ومحمد قطب، يعتبرون ـ بحق ـ من بناة الفكر الإسلامي الحديث، وأنا سقت هذا كمثال على أثر المفاهيم العقلانية على الفكر الإسلامي الحديث، **فأرجو أن لا يفهم القارئ أن ذلك ينقص من قدرهم، أو من قيمة مؤلفاتهم وأصالة فكرهم الإسلامي.**

(٢) وقع كثير من الكتَّاب والمفكرين المنتصرين للدين، في أخطاء من جراء التساهل في التعبير، وعدم التقيد والالتزام للمصطلحات الإسلامية الشرعية.

= ٤ ـ عامة كتب سيد قطب، ومنها: في ظلال القرآن، معالم في الطريق، دراسات إسلامية.

٥ ـ عامة كتب د عبدالله دراز، ومنها ـ الدين ـ دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية الدولية، نظرات إسلامية.

٦ ـ الحلال والحرام في الإسلام، ومشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي.

٧ ـ علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحي الصالح.

وأخطر هذه الأخطاء تعبير بعضهم عن أسماء الله وصفاته بتعبيرات لا سند لها، ولم ترد عن الله ورسوله؛ لأن أسماء الله وصفاته توقيفية لا يزاد فيها ولا ينقص.

مثل التعبير عن الله تعالىٰ بأنه «قوة كبرىٰ»[١] أو أنه (قوة)، أو (عقل)، أو أنه (لا حدود له)[٢]، وإسناد الخلق لغير الله، ووصف المخلوقات ـ كالطبيعة، والأنبياء والعظماء ـ بصفات لا تجوز إلا لله.

والتعبير عن بعض المصطلحات الشرعية بتعبيرات علمانية ومادية، ونحو ذلك.

(٣) من المعروف أن التصوير لغير ضرورة مقدرة شرعًا، ورفع الصور، محرّم، فقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ ما رواه البخاري ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والنسائي **«عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم النبي صلى الله عليه وسلم من سفر، وقد علقت درنوكًا فيه تماثيل، فأمرني أن أنزعه فنزعته»**[٣].

ويزيد التحريم تأكيدًا، **إذا** كانت الصورة لعالم، أو مفكر، أو رئيس أو

(١) راجع تفسير سيد قطب ـ في ظلال القرآن ـ جـ١ ص٣٩.

(٢) راجع الإسلام يتحدىٰ لوحيد الدين خان ص٥٣ تعريب ظفر الإسلام خان.

(٣) رواه البخاري في كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير، ومسلم في كتاب اللباس، باب تحريم تصوير الحيوان، حديث رقم (من ٨١ ـ ١٠٢).
ومنها قوله في رواية أخرىٰ عن عائشة رضي الله عنها قالت« قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل، فلما رأىٰ رسول الله ﷺ هتكه وتلون وجهه فقال: **«يا عائشة، أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة الذين يُضاهون بخلق الله..»** الحديث رواه البخاري في كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير، ومسلم كتاب اللباس، باب تحريم صورة الحيوان، حديث رقم (٩٢).

نحوهم ممن تحترمهم العامة؛ لأن ذلك مظنة التقديس والبدع.

وأعظم من هذا كله، إذا كانت الصورة مرفوعة، أو موضوعة في أماكن محترمة كأغلفة الكتب وصدور المجالس.

والذي يهمنا هنا: وضع الصور في أغلفة الكتب المحترمة، فإنه من العادات الغربية، التي يتبعها العقلانيون ومُحبّو الشهرة في العالم الإسلامي، وقد تأثر بهم ـ مع الأسف ـ بعض الكتاب والمفكرين والعلماء المسلمين[1]. وهذا في نظري خطأ من المسلمين آكد؛ لأنهم قُدَوات، لا سيما وأن فعلهم ذلك قد يفضي إلى تقديسهم عبر صورهم ولو بعد حين.

فلو لم يكن التحريم إلا من باب سد الذريعة لكفى، فكيف والنهي وارد عن الرسول ﷺ، وأن الذين يصورون الصالحين منهم هم شرار الخلق عند الله، فكيف إذا صور الصالحون أنفسَهم، ورَوَّجوا صورهم؟!

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اشتكى النبي ﷺ ذكر بعض نسائه كنيسة يقال لها: مارية، وكانت أم سلمة وأم حبيبة أتتا أرض الحبشة، فذكرتا من حسنها، وتصاوير فيها، فرفع رأسه فقال: «**أولئك قوم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا ثم صوروا فيه ذلك الصور، أولئك شرار خلق الله**» أخرجه البخاري ومسلم[2].

(٤) ومن أوضح الأمثلة التي تبين مدى أثر المفاهيم العقلانية في الفكر والثقافة الإسلاميين: ظهور كثير من المؤلفات الإسلامية لمؤلفين يتنصرون للفكر الإسلامي، تحمل عناوين انهزامية، من ذلك مثلاً: بعض مؤلفات أنور الجندي،

(١) من ذلك مجموعة مؤلفات الشيخ عبد الحليم محمود ـ شيخ الأزهر الأسبق.

(٢) رواه البخاري في الجنائز، باب بناء المسجد على القبر، ورواه مسلم في كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد في القبور، حديث رقم (١٦).

فإنها من الكتب التي تدافع عن الإسلام وتحارب الاتجاهات الهدامة، ومع هذا نجدها في عناوين تحمل مفاهيم وشعارات العروبة والقومية[1]، في حين أن مضامينها إسلامية في الغالب، فيستعمل ألفاظ: الفكر العربي والثقافة العربية، مع العلم أن كثيراً من الفكر العربي، والثقافة العربية في العصر الحديث نتاج نصراني، شارك فيه النصارىٰ في لبنان وسوريا وفلسطين ومصر وغيرها، وهم عرب، وثقافتهم وفكرهم عربيان، بل إنهم رواد اليقظة العربية القومية التي يحاربها الإسلام، أو علىٰ الأصح التي حاربت الإسلام وسعت إلىٰ علمنة الدول والتعليم والإعلام والثقافة والفكر العربي!

وكثيرون من مؤلفي وكتاب الفكر الإسلامي الحديث، وقعوا في مثل هذه المصطلحات المتساهلة والدخيلة، والتي تؤدي إلىٰ إضعاف المفاهيم الإسلامية القوية الأصيلة، المستمدة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وتراث سلفنا الصالح، في حين أننا لا نجد أن لاستعمالها مبرراً، لا ضرورة عقلية ولا شرعية، إلا الضعف والانهزامية في نظري.

---

(١) من ذلك كتبه:

١ ـ الإسلام والثقافة العربية في مواجهة التغريب (مع العلم أن الثقافة العربية ـ غير الإسلامية ـ ساندت التغريب).

٢ ـ الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر العربي (ومن الأخطاء والشبهات إطلاق كلمة فكر عربي).

٣ ـ أضواء علىٰ الفكر العربي الإسلامي.

٤ ـ مخططات الاستشراق في غزو الثقافة العربية (والمستشرقون إنما تهمهم الثقافة من حيث هي إسلامية فقط).

٥ ـ يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار (والفكر العربي غير الإسلامي ساند الاستعمار وخدمه).

٦ ـ يقظة الفكر العربي في مواجهة التغريب (والفكر العربي غير الإسلامي من نتاج الغرب).

هذا وأحب أن أنبه أن هذا لا يعني أني أنكر قيمة لغة القرآن اللغة العربية وفضلها، فهذا شيء لا شك فيه، لكنني أنكر أن يكون الإسلام عربي والتاريخ الإسلامي تاريخ عربي، والتراث الإسلامي تراث عربي، والفكر الإسلامي فكر عربي، فالإسلام دين الله للناس كافة، والله تعبد به الخلق بكل لغة من لغاتهم، فلم تكن العربية والعروبة شرط من شروط الإسلام، وما كان الإسلام عربيّاً بمفهومهم الخاطئ، ولا العرب هم المسلمون فقط، كما أنه قد ساهم في تاريخ الإسلام وثقافته وفكره أناس من المسلمين غير العرب وبغير اللغة العربية أيضًا في شتىٰ بقاع الأرض، في الهند وأندونيسيا وباكستان وأفغانستان وتركيا، بل في أوربا وأمريكا. وفي العرب يهود ونصارىٰ، ومجوس وشيوعيون وملاحدة، ولهم فكر عربي، وثقافة عربية، يأبىٰ الله ثم المسلمون أن تكون من الإسلام في شيء.

(٥) كذلك وقوع بعض الكتاب الإسلاميين في تأثير بعض النظريات الغربية التي تخالف نصوص كتاب الله تعالىٰ، وسنّة رسوله ﷺ، أو تخالف أصلاً من أصول الدين.

أو علىٰ الأقل، متابعتها قبل التثبت ومراجعة أصول الإسلام ومقرراته وأحكامه، فنجد أن بعض الكتاب يسوق الرأي الغربي أو النظرية وكأنها هي الأصل[1]، وهذا ظاهر في العلوم الاجتماعية والدراسات النفسية والتربوية علىٰ الأخص.

أما عن أسباب تأثر ما يسمىٰ بالفكر الإسلامي الحديث بالمفاهيم والمصطلحات والأفكار العقلانية فأهمها في نظري ما يلي:

---

(١) من ذلك مثلاً ما وقع فيه الشيخ: وهبة الزحيلي، من متابعة النظريات الاجتماعية الغربية القائلة: بأن الأصل في حياة الإنسانية الشرك والوثنية ثم تطورت حتىٰ وصلت إلىٰ التوحيد، فقد جعل ما أسماه بـ(مرحلة الوثنية) من أول مراحل البشرية، وذلك في كتابه (الأصول العامة لوحدة الدين الحق) ص١٥ ـ ١٦ وهذا منزلق خطير.

أولاً: انتشار تلك المفاهيم والمصطلحات والأفكار وشيوعها، وتمكنها من مصادر الثقافة الحديثة و مناهج التعليم والصحف وسائر وسائل الإعلام، وأساليب التخاطب والتعامل، والكتابات الأدبية والثقافية والعلمية، والتي جلها كتبت بأقلام العقلانيين، والعلمانيين المستغربين، حتى تمكنت من ألسنة الناس وأقلام الكتَّاب وعقول الناشئة، إلى أن أصبحت كأنها الأصل وغيرها هو الشذوذ. فهذا مما جعل التخلص منها، ليس بالأمر الهين، ويحتاج إلى جهود كبيرة ووقت طويل.

ثانيًا: التساهل والسلبية من قبل المسلمين في قبول تلك الأفكار والمفاهيم والمصطلحات، فلم يدركوا خطرها وأثرها حتى تغلغلت وأصبحت جزءاً من مصطلحاتهم وكيانهم الثقافي، وقد استهان المسلمون في أمرها أول الأمر، مما أوهم كثيراً من الناس بأنهم راضون عما حدث، أو أن الإسلام ليس له رأي في هذه الأمور، فلما تيقظ بعض المسلمين وجدوا أنه قد فاتهم الآوان أو كاد في تخليص أنفسهم من هذا الوباء.

ولا يعني هذا أنه لم يوجد من علماء المسلمين من لم ينتبه ولم يتصدَّ لذلك التيَّار العلماني من المفاهيم والمصطلحات والأفكار، فإنه قد وجد منهم من بذل جهداً مشكوراً، لكن كانت تلك الجهود محدودة وفردية في الغالب وتنقصها الوسائل؛ لأن هذا الأمر يحتاج إلى مجهودات كبيرة ومؤصلة، وتملُّك وسائل علمية وعملية وإعلامية تناسب طبيعة المعركة القائمة، أو تضاهي وسائل التغريب والعلمنة التي يملكها العقلانيون.

ثالثًا: قوة التيارات التي يحملها المد الحضاري الغربي الجاهلي المهيمن على أكثر العالم، والذي يحمل تلك المفاهيم العقلانية والعلمانية، مما ساعد على سرعة انتشارها وقوتها ونفوذها في العالم الإسلامي.

رابعًا: اضطرار المفكرين والباحثين الإسلاميين لمواجهة الهجوم العقلاني

العلماني على العقيدة والمفاهيم والمصطلحات الإسلامية، والتصدي له، مما ألجأهم ـ في كثير من الأحيان ـ إلى استعمال مفاهيم وأساليب ومصطلحات العقلانيين أنفسهم، لتفنيدها وإبطالها، أو تصحيحها، فكان لهذا الموقف أثره في وقوع بعض الإسلاميين في تأثير تلك المفاهيم العقلانية.

ومع هذا كله، فإني لا أرى مبرراً للتهويل والمبالغة من خطر وأثر المفاهيم والاصطلحات العقلانية على الاتجاه الإسلامي الأصيل؛ لأنه ما دام سيعتمد على الكتاب والسنّة وتراث سلفنا الصالح؛ فإنه لن يضل ـ بإذن الله ـ إلا بقدر ما يبعد عنهما، فالاعتماد الكلي في استمداد العقيدة والعلوم الإسلامية على هذه الأصول، كفيل بأن يزيل آثار المفاهيم العقلانية إن شاء الله.

وبعد ذلك يحتاج الأمر إلى مزيد من اليقظة والانتباه، والعزم الأكيد ـ من قبل العلماء والباحثين المستمسكين بالسنة ـ على التخلص من آثار المصطلحات والمفاهيم العقلانية في كتاباتهم ومصطلحاتهم الإسلامية.

وما دام الأمر يتعلق بقضية سلامة العقيدة، ونصرة الدين وحمايته وحفظ مصادره، ونصرة الحق وأهله، فإن هذا سيتحقق بوعد الله بحفظه إلى يوم الدين، إنما علينا العمل والجهاد، وعلى الله قصد السبيل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

*****